﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾

[الفرقان: 27 - 29]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

ندامةُ الظّالمين في يوم العذاب الأليم

لَمّا تحدّى المشركون الرّسولَ ﷺ أن يُظْهِرَ لهمُ الملائكةَ ليُؤْمِنوا، فأخبرهم اللّهُ تعالى بأنّهم سيرون الملائكةَ في يوم يكون شُرّه عليهم عظيمًا؛ وبيّن ما يكون في ذلك اليوم من أهوالٍ وفواجعَ؛ من حُبوط الأعمال، وتشقّق السّماءِ، ونزولِ الملائكة، وغيرِ ذلك - جاءت هذه الآياتُ ليُخبرَ اللّهُ تعالى ما يكون في ذلك اليوم مِن ندم الظّالم، وسوء حالِه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعَضُّ﴾: (عضّ) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، وهو الإمساكُ على الشَّيْءِ بالأسنانِ، ثمَّ يُقاسُ منه كلُّ ما أشبَهَهُ[2]، فالعَضُّ: الشَّدُّ بالأسنان على الشَّيْء[3]، يُقالُ: عَضِضْتُ أَعَضُّ عَضًّا وعَضيضًا، فأَنا عاضٌّ[4]، والأَمر منه: عَضَّ، واعضَضْ[5]، وفلانٌ يعَضِّضُ شفتيه، أي: يَعَضُّ ويكثر ذلك منَ الغَضب[6]، والمراد بالعَضِّ في الآية: الشَّدُّ بالأَسنانِ على الشَّيءِ ليُؤْلِمَه أو ليُمسِكَه؛ وذلك عبارةٌ عنِ النَّدم لِما جرى به عادةُ النّاس أن يفعلوه عند ذلك[7].

(1) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 245.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عضّ).
(3) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عضض).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عضّ).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عضض).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (عضض).
(7) الرّاغب، المفردات: (عضض).

2) ﴿ٱلظَّالِمُ﴾: (ظلم) وضْعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعه، كقولهم: ظَلَمَ الأَرضَ: إذا حَفَرَها في غير مَوْضِعِ حَفْرِها[1]، والظُّلْمُ: المَيْل عنِ القَصد، والعَرَب تَقولُ: الزَم هذا الصَّوْبَ ولا تَظْلِم منه شيئًا، أي: لا تَجُرْ عنه[2]، وضِدُّه: العَدْلُ، والظّالم: هو الَّذي يَجري على خِلافِ الحَقِّ بدونِ شُبهةٍ[3]، والمُرادُ بالظُّلْمِ في الآية: الشِّرْكُ أو الاعتداءُ الخاصُّ المعهودُ من قصَّةٍ مُعيَّنةٍ، وهي قصَّةُ عُقبةَ بنِ أبي مُعَيطٍ وما أغراهُ به أُبيُّ بنُ خَلَفٍ[4].

3) ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾: (ليت): كلمتانِ لا تتقاسانِ؛ إحداهما: اللّيتُ: صفحةُ العُنُقِ، وهما ليَتانِ، والأُخرى: اللَّيْتُ، وهو النَّقْصُ، يُقالُ: لاتهُ يَليتُهُ: نَقَصَهُ، واللَّيْتُ: الصَّرْفُ، ولَيْتَ: كلِمةُ التَّمَنّي والطَّمع[5]، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ نداءٌ للكلامِ الدّالِّ على التَّمَنّي، بتنزيلِ الكلمةِ منزِلةَ العاقلِ الَّذي يُطلَبُ حُضورُهُ؛ لأنَّ الحاجةَ تَدعو إليهِ في حالةِ النَّدامةِ، وهذا النِّداءُ يَزيدُ المُتمنّي استبعادًا للحُصول[6].

4) ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾: (ويل) أصلُ اللَّفظِ يدلُّ على إعلانٍ باصطلاءِ عاقبةٍ مُهْلِكةٍ لعمل أو تصرُّف[7]، فالوَيْلُ: الحُزْن والهَلاك والمشقَّة مِنَ العَذاب[8]، وَتُقالُ لِمَنْ وقَعَ في هَلَكة يَسْتَحِقُّها، تَقولُ: ويْلٌ لِزَيْدٍ، ومِنْهُ: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ [المطففين: 1]، فإن وقع في هَلَكة لَم يستَحِقَّها يُقال: ويْح لِزَيْدٍ، يَكونُ فيهِ مَعْنَى التَّرَحُّم[9]، والوَيْلَةُ: الفَضيحَةُ والبَليَّةُ، والجَميعُ الوَيْلاتُ[10]، ومن قال: وَيْلٌ وادٍ في جهنَّم، فإنَّه لم يَرِد أنَّ ويْلًا في اللُّغة موضوع لهذا، وإنَّما أراد مَن قال اللّهُ تعالى ذلك فيه، فقد استحقَّ مَقرًّا منَ النّار، وثبتَ ذلك له[11]، والمقصود بالوَيْلِ في الآيةِ: سوءُ الحالِ، وهو تَحسُّرٌ بطريقِ نداءِ الويل[12].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظلم).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ظلم).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 200.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 11.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ليت).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 11.
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ويل).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (ويل).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ويل).
(10) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ويل).
(11) الرّاغب، المفردات: (ويل).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 13.

5) ﴿خَلِيلًا﴾: (خلل) أصلُ الخُلَّة منَ الخَلَلِ، وهو: الفُرْجَةُ بين شَيئين، وهي الصَّداقةُ والمَحبَّةُ[1]، والخليل: الصّاحبُ المُلازمُ الَّذي لا يَخفَى عنه شيءٌ من أُمورِ صاحبِه، والخليلُ أيضًا: الفقيرُ، والخَلَّةُ: الفقرُ؛ لأَنَّه فُرْجَةٌ في حاله[2]، وسُمّيت المَحبَّةُ خُلَّةً؛ لأنَّها تَخَلَّلَتْ القَلْبَ فصارتْ خِلالَهُ، أَيْ: في باطنه، والتَّخَلُّلُ: النَّفاذُ، وهو دُخولُ الشَّيءِ في وسطِ شيءٍ آخَرَ، يُقالُ: خَلَّلَ أصابعَ يديْهِ ورِجليه، أَيْ: أسالَ الماءَ بينهما[3]، والمرادُ بالخليل في الآية: الصَّفيُّ والصّاحِبُ.

6) ﴿خَذُولًا﴾: (خذل) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على تَرْكِ الشَّيءِ والقُعودِ عنه، فالخِذْلانُ: هو ترككَ نُصرةَ أخيكَ، وخِذْلانُ اللهِ للعبد: ألّا يعصمَه منَ السّوء[4]، والخَذولُ: الكثيرُ الخِذْلانِ[5]، فإذا أعانَ على الهزيمةِ فهو أَشَدُّ الخَذْلِ، وهو المقصودُ مِنْ صيغةِ المُبالغةِ في الآية في وصْفِ الشَّيطانِ بِخَذْلِ الإنسانِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ يَكيدُ الإنسانَ فيورِّطُهُ في الضُّرِّ، فهو خَذولٌ[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يذكُرُ تعالى ما يكونُ عليه الكافرونَ يومَ القيامةِ مِن حسرةٍ ونَدامةٍ، فيقولُ: واذكُرْ حين يَعَضُّ الظّالمُ المُحادُّ للّهِ ورَسولِه على يَدَيه؛ تحسُّرًا وأسَفًا، يقولُ: يا ليتَني سلَكْتُ طَريقَ الحَقِّ الَّذي جاء به الرَّسولُ، واتبَعْتُه فيما جاء به مِن عندِ رَبِّه، وأنَّه يقولُ في هذا اليوم: يا هلاكي! ليتَني لم أجعَلْ مَن أغواني في الدُّنيا صديقًا وحبيبًا لي، لقد صَرَفني مَنِ اتَّخَذْتُه في الدُّنيا خليلًا عنِ القُرآنِ بعد بُلوغِه

الشَّيطانُ يوَسْوِس ويُغْري بالكفر والشِّرك والمعصية، ثُمَّ يَخْذُل أتباعَه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلل).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (خلل).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلل).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خذل).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (خذل).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 16، 17.

إليَّ، وصَدَّني عنه، ثمَّ قال اللّه تعالى: وكان الشَّيطانُ كثيرَ الخِذْلانِ للإنسانِ الذي يتَّبِعُه، تاركًا لإعانتِه ونَصْرِه وقتَ استِنصارِه به[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها في قوله: ﴿وَيَوْمَ﴾:

عـطـفٌ أوِ استئنافٌ لوصف عذابِ الظّالمين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ دالّة على العطف أوِ الاستئناف[2]، عطفٌ على فعل التّشقّق، أوِ استئنافٌ، فبعدَ أن وُصِفَ يومُ القيامة بأنّه يوم عسير على الكافرين، استأنف ما يحصل في ذلك اليوم من أحداثٍ صُدِّرتْ بمشهد من مشاهد العذاب، وهو عَضّ الظّالم على يديه.

سِرُّ التّقييدِ بالظّرف: (يَوْمَ)، ودلالتُه على المحذوف:

اذكـرْ يا محمّدُ ﷺ ذلك اليومَ وذكّرْهم بأهواله

يقع لفظُ اليوم من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ موقعَ الظّرفِ لعاملٍ مُضمَر به[3]، على تقدير: واذكرْ يا محمّد يومَ يعضّ الظّالمُ المشركُ بربّه على يديه؛ تندّمًا وأسفًا على فرْط ذنبِه في حَقّ اللّه، ويقول: يا ليتني اتّخذت في الدّنيا مع الرّسول سبيلًا[4]، وذلك في وصفٍ ليوم القيامة عندما يندم الظّالمون على أفعالهم، ويشعرون بالأسف الشّديد.

نُكْتَةُ إعادة لفظ (يَوْمَ):

يـومُ الحسرة والـعـضِّ على اليدين في الآخرة عذابٌ للظّالمين

اليومُ المَذكور في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ هو اليومُ ذاتُه المَذكور في قوله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾، لكنّه يُنظر إليه من منظور مختلف، ففي هذه المَرّة يُسَلّط الضّوء على حالٍ أُخْرى من أحوال المشركين في ذلك اليوم[5]، وهي حالُ الخسارة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 442، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 26، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 6/ 47.
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وبيانه وإعرابه: 6/ 476.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 208.
(4) مكّي القيسي، الهداية: 8/ 5207.
(5) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 74.

والنّدامة والحَسْرة، التي يُعبّر عنها بعَضِّ الظّالمين على أيديهم، يومَ يواجَهون بنتائجِ أعمالِهم.

دلالةُ التّعبير بـ ﴿يَعَضُّ﴾ مادّةً وصيغةً:

رَمـزٌ يُـعـبِّر عن شِـدّة الـنّـدم والـعـذاب واسـتـمـرارِه وتَجَدُّده

عبّر بالعَضّ في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾، والعضُّ: الإمساك بالأسنان، ويستعمل كرَمزٍ للتّعبير عن شِدّة النّدم والحسرة، فقد جرت عادةُ الإنسان أن يفعله عند ذلك[1]، حيثُ يصبح عاجزًا عن فعل أيِّ شيء سوى ذلك، ووُرودُ الفعلِ ﴿يَعَضُّ﴾ مضارعًا لدلالته على استمرار حالةِ العضّ، أي: أنّ الظّالم لن يَعضّ مَرّة واحدة فقط، بل سيستمرّ في ذلك نَدَمًا وحَسْرةً على ما اقترفَه مِن ظُلم، وتُشير هذه الاستمراريَّةُ إلى شِدّة عذابه، ويجوز أن يكون عَضُّ اليدين المَذكور في الآية الكريمة حقيقةً واقعةً[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلظَّالِمُ﴾:

عـذابُ الـشّـرك بـعـد ظـهـور الإسـلام نـدامةٌ لـلـمـشـركـين في الآخرة

أورِدَ لفظُ ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ معرّفًا بالألف واللّام للدّلالة على الجنس والاستغراق[3]، والمُراد بالظّلم في هذه الآية الكريمة هو الشّركُ باللّه تعالى، وذلك يشملُ جميعَ المشركين الذين أشركوا بعد ظهور الدّعوة المحمّديّة، بقرينة قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾، الدّالِّ على ندم المشركين يوم القيامة على شركهم، وتمنّيهم لو كانوا اتّخذوا سبيلَ الحقّ مع الرّسول، وقولِه تعالى: ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ الدّالِّ على نَدَم المشركين على صُحبة بعضِهم بعضًا، وتعاونِهم على الإشراك باللّه تعالى، ومعاداةِ الإسلام[4]، ويجوز أن يكون الألف واللّام في لفظ ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ للعهد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 11.
(2) مكّي القيسيّ، الهداية: 8/ 5210.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 276.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 16.

المخصوص[1]، الذي يُشير إلى شخصٍ مُحَدّدٍ، وهو عقبةُ ابن أبي مُعَيط، والمقصود بالظّلم هنا هو اعتداءٌ محدّدٌ معروفٌ من قصّة معيّنة، وهي قصّة عقبة، وما أغراه به أُبيّ بن خلَف، فحَمَله على عداوة النّبيّ ﷺ وأذاه، والكُفرِ به بعدَ أن شَهِدَ الشّهادتين، فتوعَّده الرَّسولُ ﷺ بأن يطأ عنقَه إن لقيَه خارجَ مكّة[2].

ويجوز أن يكون الألف واللّام في لفظ ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ للعموم؛ لأنّ الألف واللّام تُفيدانِ العُموم عند إضافتهما إلى اسم مفرد مع وجود قرينة دالّة، والقرينةُ هنا هي ترتيبُ الحُكم على الوصف، ففيه إشارةٌ إلى أنّ الوصف هو سببُ الحُكم وعِلّتُه، وهذا يعني أنّ سبب العَضّ على اليدين هو كونُ الشّخص ظالمًا، وبما أنّ الظّلم صفة عامّة، فإنّ الحُكمَ بالعَضّ على اليدين يَعُمّ الظّالمين جميعًا[3].

سِرُّ تعديةِ العَضّ بـ ﴿عَلَىٰ﴾:

العَضّ: شَدّ الشّيء بالأسنان بقوّة، بهدف الإيذاء، أو التّمسّك به، وحَقُّ فِعْلِ العَضّ في كلام العرب أن يُعَدّى بنفسه، إلّا أنّه قد يُعدّى بـ (على)، لا سيّما عندما يُراد إفادةُ التّمكّن منَ الشّيء المعضوض، وضغطِه بقوّة قصدًا إلى العَضّ الشّديد البالغ[4]، ففي هذه الآية عدّى العَضّ بـ﴿عَلَىٰ﴾؛ للدّلالة على شدّة ندم الظّالم يومَ القيامة، وتحسُّرِه على ما كان منه من ظُلم وشِرك.

الدّلالةُ على شدّة نـدمِ الـظّـالـم يـوم الـقيامة، وتـحـسُّـرِه على ما كـان منه من ظُلم وشِرك

بلاغةُ التّعبير بالكناية:

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ يمثّل ذِروةَ البلاغة؛ تعبيرًا عن شِدّة ندم الظّالم وحَسرته، فالعَضّ يُفيد شِدّة الضّغط والألم، والغَيظُ والحَسرةُ يُفيدان شِدّة التّأثّر النّفسيّ، فذِكْرُ الرّادفةِ

تـعـبـيرٌ بـلاغـيٌّ مـؤثّـرٌ عـن شِـدّة نـدمِ الظّالم

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 276.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 454.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 14/ 521.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 12.

(العضّ)، يُشير دلالةً إلى المَردوف (الغيظ والحسرة)، ممّا يُضفي على الكلام سِحرًا وبلاغةً، فيَجِدُ السّامعُ روعةً واستحسانًا، ما لا يجده لو جاء الكلامُ مباشرةً من غير تكنيَةٍ[1]، والعَضُّ على اليدين واحدٌ ممّا تُعورِف عند العرب في بعض أغراض الكلام، وهو أسلوبٌ مصاحبٌ للكلام للتّأكيد على المعنى، من خلال لغة الجسد، فعند النّدم يَقْرَع سِنَّه بأُصبُعه، أو يَعَضُّ سبّابتَه، بينما يَعَضُّ أناملَه غيظًا، وتُعدّ هذه الحركات بمنزلة كنايات عنِ المَشاعِر النّفسيّة المصاحبةِ لها، وتنشأ عن تَحَفُّز القوّةِ العصبيّة، نتيجةً للغَضَب أوِ التَّلَهُّف[2].

بلاغةُ المتشابِه اللّفظيّ:

تـفـاوتُ المـقـامِ بين عضٍّ يُرجَى شفاؤه وعضٍّ لا أملَ فيه

استُعمل لفظُ العَضّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ﴾ [آل عمران: 119]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾، ففي آية آل عمران كان العَضّ متوجّهًا إلى الأنامل، وأمّا في آية الفرقان فإلى اليدين؛ وهو ما يُفهَم منه المبالغةُ في الكناية الثّانية؛ لأنّها متوجّهةٌ إلى اليدين، بخلاف الأولى المتوجّهةِ الى أجزاء اليدين، مع أنّهما كنايةٌ عنِ الألم والحسرة، وسِرُّ التّفاوت في تصوير المعنى في الآيتين، يَرجعُ إلى تفاوت المَقامين، فحسرةُ المنافقين نابعةٌ من حِقد دفين على قوّة المسلمين وتقدُّمهم، بينما هم عاجزون عنِ اللّحاق بهم، وحَلّ مُشكلتِهم يَكْمُن في إصلاح حالِهم في الإيمان واتّباع الهدى، وأمّا الظّالم فإنّ حسرته أشدّ؛ بتضييعه فرصةَ التّوبة، فلا ينفع النّدم الآن، فمصيرُه مُظْلِمٌ، وعذابُه أليم[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 276، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 213.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 12.
(3) المطعنيّ، خصائص التّعبير القرآنيّ: 2/ 399.

سِرُّ التّقييدِ بجملة الحال ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي﴾:

صرخةُ ندمٍ من ظالمٍ يكاد يقطعُ يديه حسرةً

قولُه تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي﴾ جملةٌ حاليّة[1]، من ذلك الظّالم الذي يَعضُّ على يديه من شِدّة تأسُّفه على ما يراه منَ الأهوال يومَ القيامة، حتّى يكاد يقتطعُ يديه[2]، متمنّيًا لو أنّ بإمكانه العودةَ إلى الدّنيا، وتغييرَ مسارِ حياتِه، فقد أصابه النّدمُ، ولَفَّتْهُ الحسرةُ على ما اقترفه منَ الظّلم والشّرك فعلًا وقولًا، وفي اقتران الحركة مع القول تعانقٌ في تأكيد معنى الحسرة والنّدم.

دلالةُ التّعبير بالمضارع في ﴿يَقُولُ﴾:

نـدمُ الـظّـالـمِ مستمرٌّ مُتجدّدٌ لا يزول

التّعبيرُ بالصّيغة المضارعيّة في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ يُشير إلى تجدّد قولِ الظّالم ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾، واستمرارِه في كلّ لحظة[3]، ممّا يدلّ على شِدّة ندمِه وحَسْرتِه، فليس ندمُه ندمًا عابرًا يزول بمرور الوقت، بل هو ندمٌ مستمرٌّ يلازمُه أينما ذهب.

معنى (يا) في ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾:

تـنـبـيـهٌ إلـهـيٌّ للتّمنّي لا للنّداء

قولُه تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ تركيبٌ مشتملٌ على النّداء، والأصل في (يا) أن تكون للنّداء، والمنادى يكون عاقلًا، فلمّا أدخلها على حرف التّمنّي كانت للتّعبير عنِ التّنبيه دون قصد مخاطبةِ شخصٍ محدّدٍ[4]، فالحَقّ سبحانه يُنبّه عبادَه إلى عِظَم ما فاتهم من خير من خلال التّمنّي، ودخول (يا) على حرف التّمنّي ليس على حقيقته، بل هو على التّأويل بحذف المنادَى؛ فيكون التّقدير: يا قومي، أو يا هؤلاء ليتَني[5]، والغرضُ منه: تحويلُ النّظر إلى التّعبير عن مشاعر التّمنّي

(1) العكبريّ، التّبيان: 2/ 985.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 374.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 374.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 214.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 13.

لا المُتمنّي، كما أنّه يُضفي حذفُ المنادَى على جملة التّمنّي صفةً منَ العُموم، إذ يصبح التّمنّي معبّرًا عن رغبةٍ قد يشترك فيها جميعُ مَن كان هذا وصفُه.

غرضُ التّمنّي بـ (ليت):

صـرخـةُ عـجـزٍ وتَـمَـنٍّ في غمرةِ الـنّـدم عـلى ما فات وانقضى

هذه الكلمة ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ فيها تعبيرٌ عن شِدّة التّمنّي في حالة النّدم على ما فات، فكأنّ المُتكلّم يُناجي نفسَه بهذا القول، متخيّلًا لو أنّ ما يتمنّاه قد حدثَ بالفعل، تشبيهًا بقول مَن يُنادي عاقلًا لطلب حضوره لحاجة ماسَّة، فكأنّ المُتكلِّم يقول: هذا مقامُك فاحضري[1]، ممّا يُضيف شعورًا بعجزه عن تغيير ما فات، وتذكّرِه قيمةَ الوقت، وأهمّيّةَ اغتنامِ الفُرص.

دلالةُ التّعبير بالاتّخاذ ﴿ٱتَّخَذۡتُ﴾:

نَـدبـةُ ظـالـمٍ تَـمنّـى لـو أكـره نفسَه على طاعة الرّسول

التّعبير بالاتّخاذ في جملة: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ﴾ من باب الافتعال الدّالِّ على التّكلّف، ممّا يعني أنّ الظّالمَ يُعبِّر عن ندمه على عدم اتّخاذه سبيلَ الرّسول ﷺ في الدّنيا، مُؤكِّدًا على أنّ ذلك كان بفعل إكراهٍ، ونفسٍ مُكرَهَة، فتَمنّى لو أنّه أرغم نفسَه، وكلّفها أنْ تأخذ في الدّنيا عملًا واحدًا منَ الأعمالِ التي دعا إليها الرّسولُ ﷺ[2].

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلرَّسُولِ﴾:

عهديَّةٌ دالّةٌ على رسولنا ﷺ

الألف واللّام في لفظ ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ في جملة: ﴿ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾ دالّةٌ على العهد؛ إذ تُشير إلى أنّ الرّسولَ المقصود هو النّبيُّ محمّد ﷺ فقط دون غيره[3]، فمَنِ اتّخذ النّبيَّ محمّدًا ﷺ قدوةً له، فقد سلك طريقَ النّجاةِ والهُدَى.

بلاغةُ التّعبير عنِ الاتّباع بالمعيّة مع الرّسول:

في جملة: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ عدولٌ عن التّعبير

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 13.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 374.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 208.

بفعل الاتّباع، بأن يقول مثلًا: يا ليتني اتَّبعتُ الرَّسولَ، إلى هذا التّركيب المشتملِ على الإطناب[1]، فكأنّ الظّالمَ يُمثّل نفسَه كمسافرٍ يسير مع دليل يُرشِدُه إلى الطّريق الصّحيح، وتدلّ هذه الصّورةُ على أنّ اتّباع الرّسول ﷺ هو سبيل النّجاةِ في الدّنيا والآخرة، فصارَ الإطناب إيجازًا، فرُبَّ كلامٍ الإطنابُ فيه أبلغُ منَ الإيجاز، أمّا المتابعةُ فالشّائع إطلاقُه على الاقتداء من غير تمثيل، فكأنّ الظّالم يتمنّى لو أنّه سار مع النّبيّ ﷺ مقتديًا به، مُتمَثّلًا أقوالَه وأفعالَه[2].

معيّةُ الرّسول إيجازٌ يُعبّر عن معانٍ عميقة

الغرضُ من تقديم شبه الجملة:

قُدِّمَ شِبهُ الجملةِ ﴿مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾ كشفًا عن شِدّة حَسْرة الكافرين يومَ العَرضِ على ربّ العالَمين، فليستِ العنايةُ بالسّبيل، وإنّما العنايةُ بمعيَّةِ الرّسول.

الغرضُ من تنكير ﴿سَبِيلًا﴾:

نُكِّر لفظُ السّبيل في جملة: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾؛ للإشعار بكمال اتّباع المُتمنّي[3] للرّسول ﷺ لو فعل ذلك، فكأنّه يُقِرُّ بأنّه لم يتّبعِ الرّسولَ ﷺ اتّباعًا تامًّا؛ فكان من أمره ما كان منَ العذاب في الآخرة، ويجوزُ أن يكون تنكيرُ السّبيل في الآية الكريمة للإشارة إلى العموم والشّيوع[4]، فأيّ سبيلٍ يُؤدّي إلى النّجاة من عذاب الآخرة، مثلِ سبيلِ الشّهادة، أوِ الرُّشْدِ، أوِ الإيمانِ، أو أيِّ سبيلٍ موصِلٍ إلى الخير وحُسن العاقبة[5]، فالمُتمنّي في هذه الآية يتمنّى لو اتّخذ أيًّا من هذه السّبل قاربًا لنجاته منَ العذاب الأليم، لكن بعد فوات الأوان، ويُحتمل أن يكون تنكيرُ السّبيل في الآية دالًّا على

عـــدمُ اتّـبـاع الـرّسـول أوردَه المهالكَ

(1) ينظر في تعريف الإطناب، يحيى العلويّ، الطّراز: 2/ 123.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 12.
(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 7/ 329.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 79.
(5) محمد الهلاليّ، تفسير القرآن النّريّ: 7/ 19.

الإفراد، أي: سبيلًا واحدًا، وطريقًا مُحَدّدًا، بدلًا من تَعَدُّد المسالكِ التي كان يسلكها الظّالمُ في حياته، اتّباعًا لأهوائه وشَهواته[1].

بلاغةُ التّعبيرِ بالكناية في اتّخاذ السّبيل:

اتّخاذُ السّبيل في جملة: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ كنايةٌ عنِ اتّباع الحقّ؛ فإنّ السّبيل في اللّغة هو الطّريقُ الواضح المُمتدّ[2]، فاستعمالُه في الآية كنايةٌ عن طريق الحَقّ والصّواب الذي اتّخذه الرّسولُ الكريم، وإلى اتّباع تعاليمه وسُنّته، والسَّيرِ على خطاه، ولَمّا كان الظّالمُ على غير تلك الجادّة أصابه النّدمُ الشّديدُ، الذي يُصيبُ المَرء عندما يبتعد عن طريق الحقّ ويتّبعُ أهواءَه وشهواتِه.

نـداءٌ إلى اتّباع الحَـقّ وتجنّبِ النّدم

بلاغةُ الاعتراض بقوله: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾:

وقعت جملةُ ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾ موقعَ الاعتراضِ بين جملة ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾، وجملة ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾[3]؛ تعبيرًا عن شِدّة ندمِ الظّالم وتحسّره وأسفِه على تفريطه بمعيّة الرّسول ﷺ، واتّخاذِه الضّالّين المُضلّين أخلّاءَ من دون المؤمنين.

اعـتراضُ نـدمٍ عـلى التّـفريـط بمعيّة الرّسول، واتّـخـاذِ المُضلّ كالخليل

معنى النّداءِ في قوله: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾، وغرضه:

قولُه: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾ تركيبٌ دالٌّ على النّداء بقرينة (يا)، فإنّها في كلام العرب دالّةٌ على النّداء[4]، و(وَيْلَتا) مُنادَى منصوب، والأصلُ فيه (يا ويلتي)، غيرَ أنّ العرب حَذفتِ الياءَ منه تسهيلًا للنّطق، فقيل: إنّه أكثرُ فصاحةً، وهذه العبارةُ دالّة على شِدّة الهلاك والعذاب، في إشارة إلى هلاك الشّخص المُنادَى وعذابِه، فكأنّه يُنادي ويْلَتَه، بمعنى هلاكِه وعذابِه أن يحضر؛ فقد آنَ أوانُه[5]، فنداؤه

نـداءُ إقـبـالِ الهلاك والعذاب بحلول أوانِـه، ونـدمٌ يـمـزّق القلبَ على ضياع صحبةِ النّبيّ

(1) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 246.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبيل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 14.
(4) المبرّد، المقتضب: 4/ 202.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 214، وبهجت عبد الواحد، الإعراب المفصّل: 8/ 118.

يُعبّرُ عن شِدّة نَدمِه وتَأسُّفِه على ضياع فرصة الاقتداء بالنّبيّ ﷺ، وسلوكِه طريقَ الضّلال بدلًا من طريق الحَقّ، فكأنّه يُناجي نفسَه بهذا القول، أي: يا هلاكي[1]، مُتخيّلًا حجمَ العذابِ الذي سيُلاقيه بمَدعاة ذنوبِه ومعاصيه، ويُضاعفُ ندمَه تذكّرُه لصحبة الظّالمين الذين أضلّوه عن طريق الحقّ.

فائدةُ عطْفِ الويلِ على التّحسّر:

تأسّفٌ على مجانبة الرّسول وندمٌ على مصادقة غيره

لمّا تأسّف على مجانبة الرّسول ﷺ وابتعادِه عنه؛ تحسّرًا بقوله: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾، عُطِف عليه شعورُه بالويل والنّدم على صداقة غيره[2] بقوله: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾.

نُكْتَةُ فضلِ قوله: ﴿لَيۡتَنِي﴾:

اتّباعُ سبيلِ الرَّسولِ يشتملُ على نَبذِ خُلّة المُضِلّين

فُصِلَت جملةُ ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾، عن جملة ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾؛ لأنّها تقع موقعَ البدلِ الاشتماليّ منها[3]، فتمنّي حصولِ الأوّل مُفْضٍ إلى الثّاني؛ فالظّالمُ يتمنّى لو أنّه اتّخذ النّبيَّ ﷺ قدوةً له، فإنّ هذا الاتّباعَ مشتملٌ على نبْذِ صحبة الفاسقين الذين أضلّوه عن طريق الحقّ[4].

سِرُّ التّمنّي بـ(ليت):

تعبيرٌ عنِ استحالة العودةِ إلى الماضي

التّعبيرُ بحرف التّمنّي (ليت) في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ المسبوقِ بالنّداء، تعبيرٌ عن طلب المُحال[5]، وهو العودةُ إلى الماضي، وعدمُ اتّخاذِه الظّالمين خُلّانًا؛ لإضلالهم له عن طريق الحقّ، ولكنّه يُدرِكُ في الوقت ذاتِه أنّ ما فات قد ذهب لا رجعةَ فيه، فلا يمكنُه تغييرُ الماضي، والتّمنّي في قوله تعالى: ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ تعبيرٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 375.
(2) الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/ 658.
(3) ينظر في تعريف البدل وأحكامه، ينظر: ابن مالك، تسهيل الفوائد، ص: 172.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 13.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 375.

عن شِدّة نَدمِه وحَسرتِه على ما اقترفه من ظُلم، لكنّه في الوقت نفسه يُمثّل نوعًا منَ التّعلّل والاعتذار بتوريك جِنايتِه إلى غيره[1]، وتحميلِ جُزءٍ منَ المسؤوليّة عن أفعاله لخليلِه الذي أضّلَه عن طريق الحقّ.

الغرضُ من تنكير ﴿فُلَانًا﴾:

إخـفـاءٌ لاسـمِ المُضلّ، وإظهارٌ لصفتِه السّيّئة

وردتْ لفظةُ فلانٍ نكرةً في قول الظّالم: ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾؛ للدّلالة على ازدرائه واحتقاره لهذا الشّخص الذي ضلّله عنِ الحقّ[2]، فاستعمالُ النّكرة هنا يُشير إلى عدم الاكتراث باسم الشّخص، والتّركيز على صفته السّيّئة كونه مُضِلًّا.

نُكْتَةُ التّكنية عنِ المقصود بـ﴿فُلَانًا﴾:

إشـارةٌ إلى كـلّ مُضلّل يَصُدّ عن سبيل الحقّ

استعمالُ ﴿فُلَانًا﴾ في الآية الكريمة مُرادٌ به أُبيُّ بنُ خَلَف، أحدُ زُعماء قريش، وإن كان قد ذُكر اسمُه تحديدًا في روايات أسباب النّزول، إلّا أنّه يُمكن أن يُشير إلى أيّ شخص مشركٍ اتّخذه الظّالمُ خليلًا له، وجعله يُضلُّه عن طريق الحَقّ، ويُثبّتُه على دين الشّرك، فكلّ مُشركٍ لديه خليلٌ مشرك يُؤثّر عليه ويَصُدّه عنِ الإسلام، ممّا سيجعله في موقف النّدم يومَ القيامة على طاعة هذا الخليل، ويوبِّخُه على ضَلاله[3]، وإنّما كَنّى عنه ولم يُسَمّه باسمه الصّريح، وهو سبحانه لا يخافُ منَ المُناوأة، ولا يحتاج إلى المُداجاة، غير أنّه أراد منَ التّكنيّة العمومَ[4].

الغرضُ من تنكير ﴿خَلِيلًا﴾:

الخِلّةُ بين قُدوة الإنسان ورِفقة الشّيطان

لمّا كان الوصفُ المُعبَّر عنه بـ ﴿خَلِيلًا﴾ يَحتمِل الإنسانَ، أيَّ إنسانٍ، في إشارة إلى إنسان اتّخذَه الظّالمُ قُدوةً له في أفعاله، ويَحتمِل الشّيطانَ، أيَّ شيطانٍ اتّخذه خليلًا، أو جعله رفيقًا له –

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 214.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 536.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 12.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 375.

أورده نَكِرةً[1]؛ فالتّنكير يقتضي الشّيوعَ والعُمومَ[2]، أي: إنّ هذه الصّفةَ ليست حِكْرًا على شخصٍ مُحَدّد، بل قد تُصيب أيَّ إنسان يَتّخِذ له قدوةً سيّئة، أو رفيقًا ضالًّا.

بلاغةُ الكنايةِ عن تمنّي عصيانِ الخليل بتمنّي عدمِ اتّخاذه خليلًا:

في تمنّيه هذا اشمئزازٌ من خلّته، وإيماءٌ إلى أنّ شأن الخِلّة الثّقةُ بالخليل

لم يتمنَّ هذا الضّالُّ أن يكون قد عصا خليلَه في قوله تعالى: ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾؛ وإنَّما تمنَّى أن لا يكون اتّخذه خليلًا؛ لأنّه يتمنّى أيضًا لو لم يكن فلانٌ أصلًا في موضع الإضلال؛ فإنّه يشمئزّ من تلك الخِلّة، ويُشير هذا القول أيضًا إلى أنّ مِن شأن الخِلّة الثّقةُ بالخليل، وحملُ مشورتِه على النّصح، فلا ينبغي للمَرء أن يضع ثقتَه إلّا فيمن يوقن بسلامته من إشارات السُّوء[3].

نُكْتَةُ فصلِ قوله: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي﴾:

تفسيرٌ لعدمِ تمنّي اتّخاذِ المُضلّ خليلًا

فُصِلَت جملةُ ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِىۗ﴾، عن جملة ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾؛ لأنّها تعليليّة[4]، فإنّ سببَ ندمِه هو أنّ هذا الخليلَ قد أضلّه عن طريق الحقّ بعد أن قارب أن يكون مُسلِمًا، لكنّه منعه من ذلك؛ فأوقعَه في أعظم خسارة يمكن أنْ تصيب الإنسانَ، وهي الخسارة في الدّين.

معنى اللّام و(قد)، وفائدةُ التّوكيد:

قسمٌ وتأكيدٌ لأعظم خسارةٍ، وهي إضلالُ الخليل عنِ الدّين

لَمّا كانتِ الخسارة في الدّين من أعظم الخسارات التي تحصل للإنسان، عبّر عنها بقوله: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِىۗ﴾، بأن صَدّر الجملةَ بـ﴿لَّقَدْ﴾ الدّالّةِ على القَسَم الذي يُفيدُ التّوكيد[5]، أي: واللّهِ قد أضلّني عنِ الذّكر والهدى، فإنّ من عادة العرب ألّا

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/ 22.
(2) ابن عصفور، شرح جمل الزّجاجيّ: 2/ 134.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 14 - 15.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 15.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5272.

يقسموا إلّا فيما عَظُم خَطَرُه، وارتفع شأنُه؛ لذلك أكّد الكلامَ بـ(اللّام) و(قد) للمبالغة في بيان شِدّة خطأ الظّالم، ومدى ندمِه وحَسْرتِه، فكأنّه يقول: واللّه لقد أضلّني هذا الشَّخصُ عن ذِكْر اللّه تعالى، أو عنِ القرآن الكريم، أو عن موعظة الرّسول ﷺ، أو عن كلمة الشّهادة[1].

بلاغةُ التّعبيرِ بالاستعارة في: ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ﴾:

تشبيهُ الانحرافِ عنِ الحَقّ والرُّشْد إلى الباطل بالضَّلال

الضّلالُ في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ﴾ إضاعةُ الطّريق وخَطؤُه، إذ يَسلُك الإنسانُ طريقًا غيرَ المقصودِ، فيقعُ في غير المكان الذي أراده، كأرض العَدوّ أوِ الأرض التي يكثر فيها السِّباعُ والهَوام، والمعنى هنا: يُفيد أنّ الخليل قد سوَّل له الانصرافَ عنِ الحقّ، فأضلَّه عن طريقِه الصّحيح، فاستعمالُه للفظ الضّلال من باب الاستعارة المكنيّة؛ لتشبيه الذّكرِ بالسّبيل الموصّل إلى المَنجى، وتشبيهِ الانحرافِ عنِ الحقّ والرُّشد إلى الباطل والسَّفَه بالضّلال، وكما يُستخدمُ لفظُ الهدى بمعناه الحقيقيّ لإصابة الطّريق، فإنّه يُستخدمُ أيضًا بمعناه المجازيّ لمعرفة الحقّ والصّواب[2]، وكذلك لفظُ الضّلال، والأصل في الفعل (ضلّ) أن يكون متعدّيًا بنفسه، كما يقال ضَلِلْتُ الدّارَ والطّريق، وضلَّ فلانٌ بعيرَه[3]، لكنّه لمّا كان مستعارًا - وهو أنّ الخليل قد سوَّلَ لهُ الانصرافَ عنِ الحقّ؛ فأضلّه عن طريقه الصّحيح - جعل تعديتَه بـ ﴿عَنِ﴾ في قوله: ﴿عَنِ ٱلذِّكۡرِ﴾؛ فإنَّه لو كان الإضلالُ هو تسويلُ الضَّلال، لما احتاج إلى تعديته بما عَدّاه[4].

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾:

الذّكرُ هو القرآنُ الكريم الذي أضلّ الخليلُ خليلَه عنه

في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ﴾ أوردَ لفظُ الذّكر مُعرّفًا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 214.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 15.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضلّ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 15.

بالألف واللّام الدّالَّة على معهود مخصوص، والمُراد به القرآنُ الكريم، والمعنى: أنّ الخليل قد سوَّل لهُ الانصرافَ عنِ التّدبّر في القرآن الكريم والاستماعِ له، وكان على وشك فهْم معاني الكتاب الحكيم، ولكنّه انحرف عن هذا الطّريق، فحُرِمَ فهمَه[1]، ويجوز أن تكون (أل) في ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾ دالّةً على الجنس؛ لاستغراق كلِّ ما يدخل في حيّز هذا المعنى، كذكر الله في كلّ قول يُعبِّر عن إجلال الله وتعظيمه، أوِ القرآن الكريم، أو موعظة الرّسول ونصيحته، أو نطقِه بشهادة الحقّ، وعزمِه على الإسلام[2]، أوِ الإيمانِ والتّصديقِ بالله، وبما جاء بهِ الأنبياءُ والرّسلُ، أوِ الصّلاةِ، أو غيرِ ذلك من أنواع الذّكر.

دلالةُ التّعبيرِ بالذّكر مادّةً وصيغةً:

شهادةُ الإسلامِ سبيلُ النّجاة منَ العذاب

يجوز أن يكون معنى الذّكر في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ﴾ الشّهادةَ؛ استنادًا إلى تخصيص الظّالم في هذه الآية بعُقبةَ بنِ أبي مُعَيط، وتمثيلُ كلمةِ الشّهادةِ بسبيل الرَّسول الهادي؛ وذلك لأنّها تُمثّل سببَ النَّجاة منَ العذاب، وتشبيه الصَّرف عن كلمة الشّهادة، بالإضلال عن سبيل الرَّسول[3].

سِرُّ التّقييدِ بالظّرف في قوله: ﴿بَعۡدَ إِذۡ﴾:

حكايةُ زمنٍ دالٍّ على شِدّة تمكُّنِ الذّكرِ في القلب

﴿إِذۡ﴾ ظرفٌ للزّمن الماضي في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾، والمقصودُ به: زمنٌ خاصّ تمكّن فيه الذّكر[4]، فكأنّه يقول: أضلَّني عنِ الذّكر بعد أنِ استقرَّ فيَّ الذّكرُ، وتمكّنَ من نفسي، ولم يقل: بعد ما جاءني، أو بعد أن جاءني، للتّأكيد على شدّة تمكُّن الذِّكر، وذلك مشابهٌ لقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ﴾ [التّوبة: 115]، فالمعنى: أنّه قد تمكّن هديُ اللهِ تعالى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 16.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 282.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 16.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 214.

من قومه[1]، و﴿إِذْ﴾ تدلُّ على الفَجأة[2]، فقد جعل مجَيءَ الذّكرِ - وهو القرآنُ والإيمانُ ونحوُهما - حاصلًا بطريق الفجأة، يُؤيّد ذلك سببُ النّزول، فالمعنيُّ "بالظّالم: عقبةُ بنُ أبي مُعَيط؛ لأنّه ارتدَّ بعد إسلامه؛ طلبًا منه لرِضا أُبيِّ بنِ خَلَفٍ"[3].

بلاغةُ إسنادِ المَجيء إلى الذّكر:

دورُ القرآن الكريم في حماية النّاس من ضلال الأصدقاء والخُلّان

في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ﴾ أُسنِد لفظُ المَجيء إلى الذِّكر، وأُريدَ بالمَجيء هنا الإسماعُ، فكأنّ القرآنَ الكريم قد حلّ عند الإنسان ليَسْمعَه، ومثلُه في ذلك قولُهم: أتاني نبأ كذا، وفي ذلك احتمالان[4]؛ فإذا حُمل الظّالم في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ على معيّن، وهو عقبةُ بن أبي معيط، فمعنى مجيء الذّكر إيّاه: أنّه كان يجلس إلى النّبيّ ﷺ ويأنس إليه، حتّى صَرَفه عن ذلك أُبيُّ بنُ خَلَف، وحَمَلَه على عداوته وأذاته، وإذا حُمِل ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ على العموم، فمجيءُ الذِّكرِ هو شيوعُ القرآنِ بينَهم، وإمكانُ استماعِهم إيّاه، وإضلالُ خُلّانِهم إيّاهم صرفُ كلّ واحدٍ خليلَه عن ذلك، وتعاونُ بعضِهم على بعض في ذلك.

معنَى الواوِ ودلالتُها في قوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾:

خيانةُ الشّيطانِ وخِذْلانُه أصحابَه في أَحْلَك اللّحظات

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ﴾؛ فقد كان الشّيطانُ مصاحبًا للكافر، وكان يُضلُّه عن سبيل الحقّ، ثمّ خَذلَه في وقت شدّتِه، وحاجته إلى نُصرته[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 16.
(2) محمد الهلاليّ، تفسير القرآن الزّريّ: 9/ 19.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 440.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 16.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 375.

نُكْتَةُ دخولِ (كانَ) في فاصلة الآية:

خِذْلانُ الشّيطانِ صفةٌ ثابتةٌ لا عارضةٌ، وسلوكٌ مُتَكَرِّر مُمتدّ

أُدْخِل الفعلُ النّاقص (كانَ) في فاصلة الآية في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ﴾؛ للدّلالة على عراقة الشّيطان في خِذْلانه بني آدم، فهو خَذولٌ على الدّوام[1]، فهي صفة ثابتةٌ للشّيطان في علاقته بالإنسان، وليست حَدَثًا عارِضًا، بل هو سلوكٌ مُتكرِّر، ونمطٌ ثابتٌ في تعامله مع البشر، فضلًا عمّا تُضفيه (كان) على صفة الخِذْلان منَ البُعد الزّمانيّ، الذي يُشير إلى استمرارها وامتدادِها.

معنى (أل) ودلالتُها في ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

كلُّ مَن أضلّ منَ الإنس والجنّ فهو شيطانٌ

اللّام في لفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ دالّةٌ على الجنس[2]؛ لاستغراق كلِّ مَن كانت هذه صفتُه، في إشارة إلى أنّ الشّيطان ليس مُجَرّدَ اسمٍ، أو كيانٍ مُحَدّد، بل هو وصفٌ يَنطبق على أيّ شخص أو كائن يتّصف بتلك الصّفات، بغضّ النّظر عن جنسه أو نوعه، فيَشمَل الخليلَ المُضِلَّ، أو إبليسَ؛ بحمله على مخالفته ومخالفةِ الرّسول ﷺ، أو جميعِ مَن تشيطن مِن عُتاة الجنّ والإنس[3].

معنى (أل) ودلالتُها في قوله: ﴿لِلۡإِنسَٰنِ﴾:

تهكّمٌ بالإنسان الكافر المُضَلّل بشيطانه مع خِذْلانه له

(أل) الدّاخلةُ على لفظ الإنسان في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ الغالبُ فيها أن تكون لمعنى الاختصاص، أي: الإنسان الكافر[4]؛ وهي هنا دالّةٌ على التّهكّم[5]؛ فإنّ الكافر قد اتّخذ الشّيطان وليًّا له، بينما الشّيطانُ خذولٌ له، لا ينصرُه ولا يُعينُه، ووجهُ التّهكّم في ذلك: أنّ الإنسانَ يضعُ ثِقتَه فيمن لا يُؤتَمَن عليه، ويُسَلِّم قيادَه لمَن يُضِلّه ويُهْلِكُه.

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 191.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 277.
(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 13/ 375.
(4) محمد الهلاليّ، تفسير القرآن النّريّ: 9/ 19.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 81.

الغرضُ من تقديم شِبه الجملة على الخبر:

التّأكيدُ على أهميّة الإنسان، وخُطورةِ خِذلان الشّيطان

قُدِّم شِبهُ الجملة ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾ على الخبر ﴿خَذُولًا﴾؛ للاهتمام والتّأكيد على أهميّة الإنسان، ومكانتِه المرموقة، فهو المِحورُ الأساسيّ في هذه العلاقة مع الشّيطان، وهو المستهدف من خِذلانه، فخِذْلانُ الشّيطان ليس مُجرّدَ حَدَثٍ عابر، بل هو ظاهرةٌ خطيرة تُهدِّد المَرءَ في إيمانه وأخلاقه، ومن فوائد التّقديم هنا الدّلالةُ على الحصر، فإنّ خِذلانَ الشّيطان للإنسان متوجّهٌ إليه لا إلى غيره، فهو المُستهدَف الوحيدُ من خِذلان الشّيطان، ولا يوجد كائن آخَرُ له هذه العلاقة مع الشّيطان، ولا يوجد غيرُه يَخْذُله الشّيطانُ بهذه الطّريقة، ثمّ إنّ في تقديم شِبه الجملة على الخبر حفاظًا على فاصلة الآية.

دلالةُ التّعبير بـ﴿خَذُولًا﴾ مادّةً وصيغةً:

مَهاوِي الخِذلان حيثُ يتضاعف الإثمُ، ويصبحُ المَرءُ شرًّا على نفسِه وغيرِه

قولُه: ﴿خَذُولًا﴾ على زِنة (فَعول)، وهو دالّ على المبالغة[1]، أي: أنّ الشّيطان يَقْذِف به في مهاوي الخِذلان الشّديد، فلا يجد مُعينًا، ولا ينصره أحدٌ، بل يُلْقَى به في أحلك المواقف التي يكرهها، ولا يملك أيَّ قُدرة على الخلاص، بل هو شرٌّ من ذلك كلّه، فإثمُه يتضاعف بإثمِه وإثم مَن أضلّه[2]، ولا يقتصر الخِذلان على ترك نَصْر المُستنجِد، بل يتعدّاه إلى التّواطُؤ معَ العَدوّ، وهو ما فعله الشّيطانُ مع الإنسان، فبَدلًا من نُصْرته ساعدَه على الهزيمة، ممّا يُعدّ أشدَّ أنواعِ الخِذلان؛ ولذلك وُصِفَ الشّيطانُ بالخَذول بصيغة المبالغة؛ لما يُسبِّبُه من ضَرر بالغٍ للإنسان، من خلال توريطه في الضَّرر[3].

الغرضُ من تنكير ﴿خَذُولًا﴾:

الدّلالةُ على عِظَم خِذلان الشّيطان للإنسان

لَمّا كان خِذلان الشّيطان للإنسان عامًّا شاملًا لجميع مواقف

(1) السّيرافيّ، شرح كتاب سيبويه: 1/ 440.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 375.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 16 - 17.

الإنسان، وفي كلّ أوقاته، دلَّ التّنكير في ﴿خَذُولًا﴾ على إفادة التّعظيم، وهو أنّ خِذلانَ الشّيطانِ للإنسان عظيمٌ وخطير جدًّا، وله عواقبُ وخيمةٌ؛ فحَريٌّ بالإنسان ألّا يتّخذَه وليًّا، فسيفتقدُه عند حاجته.

دلالةُ ختمِ الآية بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾:

عداوةُ الشّيطانِ للإنسان وخِذلانُه له أمرٌ محتَّمٌ لا شَكّ فيه

يَحتمل قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ أن يكون من تمام كلامِ الظّالم؛ تعبيرًا منه عن شعوره بخِذلان خليله بعد وصفه بالإضلال، وهي صفةٌ شيطانيّة بامتياز، أو ربّما قصدَ الظّالم بشيطانه إبليسَ الذي دفعه نحو الضّلال، ومخالفةِ الرّسول بوساوسه وإغوائه، إلّا أنّ وصفه بالخِذلان يوحي بأنّه كان يُمَنّيه بوعود دُنيويّة، ونجاةٍ أُخرويَّة لم تتحقّق[1]، ويَحتمِل أن يكون تذييلًا من كلام الحقّ سبحانه، لا من كلام الظّالم[2]، يذكِّرُنا الحقّ ﷻ بأنّ الشّيطان عدوٌّ للإنسان، وأنّه يغويه ويُضِلّه، فكلُّ ما يفعله الإنسان مِن شرور وضلالٍ هو من عمل الشّيطان، الذي يُسَوِّل له ذلك ويُشَجّعه عليه؛ فالشّيطان خذولٌ للإنسان، أي: أنّه يَخْذُلُه ويتركُهُ وحيدًا في مواجهة الشّرور، بما جُبِلَ عليه منَ الخِذْلان الشّديد لبني الإنسان[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السّبيلُ، والطّريقُ، والصّراطُ:

الطّريق عامٌّ، والصّراط خاصٌّ، والسّبيل يُجَسّد النّدمَ والرّغبةَ في الرّجوع إلى الطّريق الحقّ

السّبيلُ: طريقٌ واضحٌ ومُبيّن، يَسْهُل على الإنسان السّيرُ فيه، ويُؤدّي به إلى وُجهة مُحدّدة، أمّا الطّريقُ: فيُشير إلى أيّ مَسلكٍ يمكنُ السّيرُ فيه، سواء كان واضحًا أو غامضًا، له وجهةٌ محدَّدَةٌ أو لا، والصّراط: هو الطّريق المستقيم الدّقيق، الموصِلُ إلى الجنّة في الآخرة[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 214.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 277.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 16.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 313.

فالسّبيل يناسِبُ سياقَ الآية الكريمة الذي يُعبِّر عن شعور المُتكلّم بالنّدم لعدمِ اتّخاذِه للرّسول ﷺ دليلًا وهاديًا في حياته، أمّا الطّريق فلا يُناسب سياق الآيةِ بشكل كامل؛ لأنّه قد يُستعملُ بمعنًى عامّ، وكذا الصّراط فهو يُشير إلى طريق مُحَدّد، ومُخْتَصٍّ بالنّجاة في الآخرة؛ لذلك فإنّ التّعبير بلفظ (السّبيل) في الآية الكريمة هو الأنسبُ بلاغيًّا ودلاليًّا، وفيه تجسيدٌ لمشاعر المُتكلِّم من ندم ورغبةٍ في الرّجوع إلى الطّريق الحَقّ الصّحيح.

الصّديقُ، والخليلُ، والصّاحبُ:

الصّديقُ: مَن صدق في النّصيحة والإخاء، والخليلُ: من تخلّلت مودّتُه القلبَ، والصّاحبُ: المُلازِم الدّائم

أوردَ لفظُ الخليل في قوله: ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾، ولم يورد لفظُ الصّديق، أو الصّاحب، أو نحوه، مع تقارب هذه الألفاظ في المعنى.

فالصّديق: منَ الصِّدق، الذي هو خِلاف الكذب، والأصل في معناه: الدّلالةُ على القوّة، وذلك لقوّته في نفسه؛ لأنّ الكذبَ لا قوّة له فهو باطل[1]، وسُمّيَ الصّديق صديقًا لصِدقِه في النّصيحة والإخاء، ولتصادق الصّديقين في الحديث والمودّة[2].

وأمّا الصّاحبُ: فهو "المُلازِم، إنسانًا كان أو حيوانًا، أو مكانًا، أو زمانًا، ولا فرقَ بين أن تكون مصاحبتُه بالبدن، وهو الأصلُ والأكثرُ، أو بالعناية والهِمّة"[3].

وأمّا الخليل: فهو (فَعيل) بمعنى (فاعِل)، وهو مَن تخلَّلت مَودَّتُه القلبَ، وامتزجت بالنّفس، فكانت له مكانةٌ منها، وسلطانٌ عليها[4].

الخِذْلانُ والخيانة:

وُصِفَ الشّيطانُ بالخَذول في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم: (صدق).
(3) الرّاغب، المفردات: (صحب).
(4) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 245.

خَذُولًا﴾؛ لكثرة خِذلانه، والخِذْلان: تركُ المعونةِ، أو تركُ مَن يُظَنّ به أن ينصرَ نُصرتَه وإعانتَه[1]، أمّا الخيانة: فهي أن يُفَرّط الخائنُ فيما يُؤْتَمنُ عليه، وهي خِلاف الأمانة، وتأتي في القرآن الكريم بمعاني المعصية، ونقضِ العهد، وترك الأمانة، والمخالفةِ في الدّين، والزّنى[2]، ولَمّا كان من حال إبليس أنّه يُمَنّي ابنَ آدمَ ويَعِدُه و"يواليه، حتّى يؤدّيَه إلى الهلاك، ثمّ يتركُه، ولا ينفعُه"[3]؛ كان لفظُ الخِذلانِ أليقَ وأنسبَ بهذا الموضع من لفظ الخيانة.

الخِذلان: تركُ المعونةِ والنُّصرة، والخيانةُ: التّفريطُ في الأمانة

(1) ابن فارس، مجمل اللغة، والرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير: (خذل).
(2) فهد الضّالع، زوائد ابن الجوزيّ، ص: 442.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 437.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والثلاثون،
سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 37 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 37 : المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-79-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8644972 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»